



د. نعمات الطراونة *

الخصيض

◀ يُشكّل التراث الشعبي ثروة من الآداب والقيم والعادات والتقاليد، وما يرتبط بها من مآثورات، هنا تأخذنا د. نعمات الطراونة في رحلة تكشف عن عادات وتقاليد أردنية ترتبط بخصيض الحليب، تقول الطراونة: تخضّ جدّتي على القرّعة، وكان دائماً يتبادر لذهني ذلك الحدث الذي يرتبط في الخصيض وهو أنّ الرّايب قد يتحوّل كلّهُ إلى زبدة، فهي بركة قد تكون على يد إحدى النسوة، فيتبيّس السقا، وما إن ترمى ذلك حتى تسارع إلى جدّم (١٢) ذبيحة لوجه الله تعالى على هذه البركة ولا تُخبر النّاس عنها، وكنت أتمنّى أن يحدث ذلك مع جدّتي وأنّ أشهد هذا الحدث.

بعد بيع البهم⁽⁵⁾، وتضع الجزء المتبقي منه في السّقا/ المفرّعة⁽⁶⁾، وتتركه حتى المساء ليروب. عند الغروب يعود الراعي بالغنم، تأخذ كل واحدة مكانها عندما تسمع صوته قائلاً: "حلب"، يسهل عليه ربطها في الرّبِق، ويتم ربط الفطمان⁽⁷⁾ في ربق خاص، "يا عويلي اربطوا الفطمان في الرّبِق لا يقطّعن الرّفّة"، وكنت أشارك

قَبْل أن تغادر الطيور وكونها، تنهي جدّتي وأمّي حلب الغنم التي نظمها الراعي في الرّبِق⁽¹⁾، وقد يمسك الراعي رأس إحداهنّ قرّي حلب⁽²⁾؛ لأنها قد ترفس دلو الحليب فينسكب في الأرض فتبدأ المسبّات عليها: "ولّ عليك نعجة صايدة⁽³⁾"، تُدخل أمي الحليب فتقوم بتوزيع بعضه على الجيران فهو حليب سمّاط⁽⁴⁾ أوّل حلبة للغنم

* كاتبة وباحثة أردنية

ne_awad@yahoo.com



الراعي أحياناً في ربطها، وقد تتجرأ فنقوم بحلب الغنم، " اقعدي يا بنت لا تكبي الحليب". تنتهي عملية الحليب، وتدخلة أمي فتزله⁽⁸⁾ على المزلّة، بينما تُعدُّ جدتي إبريقاً من شاي الحليب، تجتمع حوله العائلة والراعي، وبعد الانتهاء منه يخلد الجميع إلى الراحة، فقد أعدت جدتي مكاناً خاصاً للنوم، حيث جمعت كمية كبيرة من الشّيح والقيصوم وفرشتها رصفٍ من الأرض ليعلو عليها الفراش عن الهوام، وتنتجه جدتي وأمي إلى تفريغ الرّايب في المفرغة، وتضعه في الباهرة⁽⁹⁾، أو باب البيت ليبرد طوال الليل. نصحو على صوت الراعي مرّة أخرى، وأصوات رعيان الجيران في العرّب: "قريّ حلب"، هذه النغمات التي اعتدنا على سماعها صباحاً ومساءً، وأصوات ثغاء صغار الخرفان على أمهاتها. وبعد الانتهاء من حلب الغنم، تخبز أمي العجينة على الصّاج، وكثّا نحيط بجورة النار لتناول طعام الإفطار، نتناول خبز الشّراك من على شجيرات الحطب التي جمعتها أمي ووضعتها على شكل سياج في باهرة البيت الأمامية، ونغمس لقيمات الخبز في رايب وضعته لنا جدتي في صحن الألمنيوم من السّقا، ونشرب عليها الشّاي من ذاك الإبريق الزجاجي الأزرق بجانب الصّاج، وجدتي تُشرّع الرّواق من الجهة الشماليّة الغربيّة وتضع المرشحة⁽¹⁰⁾ لتفرد فرقتها المصنوعة من جلد تيسين أو عنزين، وتفرغ الرّايب فيها لتعمل فيها أنفاسها في التّفخ، وكنت أعجب كيف لجدتي وهي الكبيرة في العمر أن تنفخ هذا الجسم الضخم، وكم جلسنا على الجهة الثانية لندفعها معها، وعندما تكون كمية الرّايب قليلة كانت جدتي تخضها في السّقا بأن تُعلّقه لنا على الرّكابة⁽¹¹⁾ لنخضه عنها.

الراعي أحياناً في ربطها، وقد تتجرأ فنقوم بحلب الغنم، " اقعدي يا بنت لا تكبي الحليب". تنتهي عملية الحليب، وتدخلة أمي فتزله⁽⁸⁾ على المزلّة، بينما تُعدُّ جدتي إبريقاً من شاي الحليب، تجتمع حوله العائلة والراعي، وبعد الانتهاء منه يخلد الجميع إلى الراحة، فقد أعدت جدتي مكاناً خاصاً للنوم، حيث جمعت كمية كبيرة من الشّيح والقيصوم وفرشتها رصفٍ من الأرض ليعلو عليها الفراش عن الهوام، وتنتجه جدتي وأمي إلى تفريغ الرّايب في المفرغة، وتضعه في الباهرة⁽⁹⁾، أو باب البيت ليبرد طوال الليل.

نصحو على صوت الراعي مرّة أخرى، وأصوات رعيان الجيران في العرّب: "قريّ حلب"، هذه النغمات التي اعتدنا على سماعها صباحاً ومساءً، وأصوات ثغاء صغار الخرفان على أمهاتها. وبعد الانتهاء من حلب الغنم، تخبز أمي العجينة على



استعدادًا لرحلة الوريد، وقد كنا نتشاجر أنا وإخوتي من يركب على الحمار، وقد يعود بعضنا إلى البيت عقابًا له.

يقف الحمار بجانب غدير الماء، وتقتلع أمي شجرة من الشيح أو القيصوم فتضعها بجانب الماء لتزل من فوقها الماء ممّا علق به من الأعواد أو البعر الذي جرفته مياه الأمطار، وتبدأ بتعبئة الماء بعد وضع المحقان الذي تلازمه المرّلة لتزل الماء عليها.

نعود لبيت الشّعر وقت الظهيرة لنجد جدّي لم ترح مكانها، فقد خلا لها الجوّ من ضجيج الأحفاد، فبدأت تستذكر رحيل الأحبة، فتمعد بهم وتكفكف دموعها بطرف رذنٍ مسلّحها⁽¹⁷⁾:

يا قاعدين الحول طال مناكو...
واتتوا تجوا والا الزمان أعداكو
مرّيت من طرف العرب مدّادي...
يا جرن اعتيق حسّه ينادي

تخضّ جدّي على القرّعة، وكان دائمًا يتبادر لذهني ذاك الحدث الذي يرتبط في الخضيض وهو أن الرايب قد يتحول كلّه إلى زبدة، فهي بركة قد تكون على يد إحدى النسوة، فيتبيس السقاء، وما إن ترى ذلك حتى تسارع إلى جدّع⁽¹²⁾ ذبيحة لوجه الله تعالى على هذه البركة ولا تُخبر الناس عنها، وكنت أتمنى أن يحدث ذلك مع جدّي وأن أشهد هذا الحدث.

تُهي أمي أعمالها: "تعالِي يمه حُصي عّي خليني أعبي غليونني واشرب لي كاسة شاي"، تقوم جدّي وتعدّ غليونها، وتأخذ أمي مكانها بسرعة حتى لا يبرد الدرّ⁽¹³⁾، جدّي: "يمه افتحيها شوفي الزبدة التمت"، تفتح أمي القرّعة، "هات لي يا بنت من القلن صبيب⁽¹⁴⁾"، تصبّ أمي الماء فوق اللبن وتنفخ القرّعة مرّة أخرى، تدخل جارتنا: "يلا نرد على الغدير"، تشدّ أمي القلنات وأحيانًا الروايا⁽¹⁵⁾ على الحمار بعد وضع المرشحة والوئر⁽¹⁶⁾ عليه،

مَرَّيت من طرف العَرَبِ مِتَعَدِّي....
يا جُرْن كديان حِسّه يُودِّي
يا امدلله لا تيمّني للبين...
والبين شظى كلِّ خَدِّ زَيْن.

الرَّحْبَة نجمع بعض البَقْل (السَّحوم والقَعْفير
والسَّيخ والسُّبْح والحَيَّصُون)، ونعود في المساء
قبل عودة الرِّعيان ■

الهوامش:

- (1) الرُّبُق: حبل فيه عُرى لربط الغنم عند الحليب.
- (2) قري حلب: كلمات يقولها الراعي للغنم لتتوقف للحليب.
- (3) صائدة: حركتها كثيرة.
- (4) حليب السماط: أوّل مرّة تُحلب فيها الغنم بعد بيع خرافها.
- (5) البهم: صغار الخراف.
- (6) السَّقّا/ المفرغة: وعاء من الجلد المدبوغ يُوضع فيه الحليب بعد أن يروب.
- (7) الفُطْمَان: صغار الماعز.
- (8) فُتْزَلُه: تنقيته من الشوائب على طرف قطعة قماش.
- (9) الباهرة: الجزء الداخلي من البيت.
- (10) المرشحة: البردعة، وهي قطعة مكوّنة من مجموعة أقمشة مُخاطة على شكل مستطيل تُوضع على ظهر الحمار.
- (11) الرِّكَّابَة: ثلاثة أعواد تربط من الأعلى وتُوضع على شكل ثلاثي يُعلّق عليها السَّعن للخصّ.
- (12) جَدع: قطع أذن الشاة على تية أنها سُدّيح في ما بعد.
- (13) الدَّر: الحليب الرائب.
- (14) الصَّبِيب: الماء الذي يُضاف للرايب ويساعد على جمع الزبدة أثناء عملية الخصّ.
- (15) الرِّوايا: مفردها رَاوية، وهو وعاء لجلب الماء.
- (16) الوثُر: أداة من الخشب تُوضع على ظهر الحمار لحمايته عند حمل الماء عليه.
- (17) ردن مشلحها: كُمر مدرقتها.
- (18) هدهدي: خصّي عليه ببطء شديد حتى تجتمع الزبدة.
- (19) المَزِيد: مجموعة من الجلود نَمّت خياطتها ودبغها جيّداً، وتمتاز بأنّ بابها واسع ليسهل وضع الزبدة فيه.
- (20) يَمْضَل: ينفصل المُصل عن الجِجِب.
- (21) الزعاميط: كرات الجميد.

تمسح جدتي دموعها: "يَمّه تعالي هَدِهْدِي"⁽¹⁸⁾
على القُرْقعة خليني أروح إلى السَّقّ أشرب قهوة،
أرسلت لي أم عبدالكريم مع بنت عايشة"،
تُهدد أمي على القُرْقعة، وبعد هنيهة تُحضر
القِدْر وتُفرغ به اللبّن، وتعزل الزبدة منه، وتبدأ
بوضع الزبدة واللبن لتوزيعها على الجيران فهذه
أوّل خصّة، لأعود أنا بعد رحلة توزيع اللبّن
بالكثير من العطايا عن الفلاس "صُرّة من السكر،
أو العدس المجروش، أو الأرز، أو حبات بطاطا
أو بيض بلدي".

تُعدّ أمي النار لُجَبِج ما تبقى من اللبن، وتضع
ما تبقى من الزبدة في المَزِيد⁽¹⁹⁾، حيث حفرت
في رفة البيت جورة فرشتها بالشيخ والقيصوم
وبعض الشجيرات، ووضعت على الزبدة القليل
من الملح لحفظها من التعفن أو أن يبَحّ بها
الدود، تنزل أمي قِدْر الجبج عن النار (ليمصل)
⁽²⁰⁾ وتضعه في المِخْلَة، وتتركه قليلاً ثم تربّصه
على صخرة ملساء لليوم الثاني حيث يُعجن مع
الملح ويربص مرّة أخرى حتى اليوم الثالث ليتم
تعجينه وصنع زعاميط اللبّن منه⁽²¹⁾.

وفي ما تبقى من جمر النّار تخبز أمي قرصاً (عَرَبُود)،
تفتّه في قليل من الجِجِب، وتُقَفِّره ببعض السمن
البلدي، فنجتمع حوله مع جدّتي التي عادت توّها
من ديوان القهوة. وتشدّ أمي العزم في رحلة جَمع
الحطب مع جاراتها، وننطلق معها في البرّيّة